الباب الخامس

النثر الجاهلي

١ً ما وصل الينا منه : لم يصلنا من النثر الجاهلي إلا النـزر اليسير ، لانّ العرب كانوا يعتمدون في نقل أدبهم على الحفظ لا على الكتابة ؛ فكانت كتابتهم لا تمتد الى تدوين الكتب والقصص والرسائل . والقليل الذي وصلنا من النثر الجاهلي ليس له كبير قيمة تاريخية او فنيّة بسبب ما لحقه من تحريف .

٢ً ميزاته العامة : هو وليد الطبع يشيع فيه السّجع ؛ وهو متين اللفظ والتركيب ينزع الى الايجاز والموسيقى ، ويُرسَل مقطّعاً .

٣ً فنونه :

١ – المثَل : المثل عبارة تُضرَب في حوادث مشبهة للحوادث الاصلية التي جاءت فيها . وهو لا يخلو من الغموض احياناً . وقد اشتهر في الامثال أكثم بن صيفي . وساعد على حفظ الامثال تواترها على ألسنة الناس وجمعهـا في كتب ، ككتاب « مجمع الامثال » للميداني . – والامثال تدلّ على عقليّة العرب واخلاقهم .

٢ – الخطابة : كثرت الخطابة في الجاهلية لتعدّد بواعثها ، وكان للخطباء شأن كبير . ومن اشهر الخطباء قُسّ بن ساعدة ، وأكثم بن صيفي .

وكان للعرب سُنَن خاصّة في خطابتهم منها انهم كانوا يخطبون على رواحلهم او على نَشَز من الارض ، وكانوا يشيرون بالعصيّ والقنا وما الى ذلك .

امتازت الخطابة الجاهلية بقصَر العبارة وكثرة الامثال والسّجع .

ويلحق بالخطابة الوصيّة ، وسجع المتكهّنين . والمنافرة .

٣ً القصص : كانت قصص الجاهليين اسماراً تدور حول ايامهم .

٤ً قُسّ بن ساعدة : هو اسقف نجران وخطيب العرب وحكيمهم في الجاهلية . توفي نحو سنة ٦٠٠ م . اسلوبه بعيد عن الصنعة ، كثير السّجع والامثال .

٥ً اكثم بن صيفي : هو اشهر حكماء العرب وخطبائهم في الجاهلية . كان رجل بِرّ ونزاهه . توفي نحو سنة ٦٣٠ م. يتخذ في كلامه العقل وسيلةً للتأثير ، ويُرسل الحكَم في قالب موجز وفي اتّئاد ورصانة على غير وحدة تأليفيّة .

Scanned by CamScanner

١ً ما وصل الينا منه : اذا قيس النثر الذي وصلنا من العهد الجاهلي، بما بلغنا من شعر تلك الايام، وُجد نزراً يسيراً لا يكاد يُعتدُّ به. وليس ذلك لانصراف العرب عن النثر، فإنهم كانوا مشغوفين بالخطابة وضرب الامثال ورواية القصص من تاريخيّة وخياليّة؛ إنما كان ذلك لاعتماد العرب في نقل ذلك النثر على **الحفظ لا على الكتابة**. وهـذا لا يعني ان العرب جهلوا الكتابة؛ فقد كان الخطُّ والكتابة شائعين بعض الشيوع في بلاد العرب ولاسيما النواحي المتحضّرة منها؛ ولكن معرفة الكتابة كانت بسيطة لا تمتدّ الى تدوين الكتب والقصص والرسائـل الادبية بل الى بعض الاغراض التجارية او السياسية، وكان العرب — على ما يخبرنا الجاحظ — يسمُّون العهود السياسية المكتوبة «مَهارِق». وكانت تلك الكتابات **ساذجة بعيدة عما هو من الفنّ** والتجويد.

والقليل الذي وصل الينا من النثر الجاهلي، **ليس له كبير قيمة تاريخية كما انه يخلو من القيمة الفنية الحقيقية**. فإن الرواة الذين نقلوه حرّفوا فيه ما حرّفوا، وقد لحق التحريف معناه ومبناه، حتى فقد كثيراً من حقيقته ومن صبغته الاولى.

٢ً ميزاته العامة : النثر الجاهلي **وليد الطبع**، بعيد عن الصنعة والزّخرف والغلو، وان كان هنالك ما يشبه الصنعة في ما هو من السّجع وما اليه من تطلُّب بعض الايقاع الموسيقيّ المكتسب من المزاوجة في الالفاظ والجمل، ومن الفواصل والقوافي السجعيَّة.

فالنثر الجاهلي هو الكلام الحيّ لانه لغة الشعب في مختلف طبقاته، يسير مع اخلاق البدويّ وبيئته؛ وهو من ثمَّ **قويّ اللفظ متين التركيب، سطحي الفكرة ينزع نزعة الايجـاز والموسيقى في الجملة والاسلوب، ويرسَل مقطّعاً لا يربط بين افكاره رابط**.

٣ً فنونه : كان العرب يستعملون النثر لاغراض مختلفة؛ فقد كان وسيلة للتفكهة والتعليم، كما كان وسيلة للعمل الاجتماعيّ والسياسيّ، ومن ثمّ كان له فنون عدّة منها **المثل والخطابة، والقصص**.

Scanned by CamScanner

١ – **المثل**: المثل عبارة تضرب في حوادث مشبهة للحوادث الاصلية التي جاءت فيها، كقولهم: «أمُّ الجبانِ لا تفرحُ ولا تحزنُ». وكثير من الامثال واضح إلا ان هنالك ما هو غامض المعنى مبهم لا يُفهم إلا بالرُّجوع الى الشُّرّاح، ومن ذلك قول العرب: «بعينٍ ما أرينَّكَ»، ومعناه «أسرع»؛ وهو كلام عُرف معناه سماعاً من غير أن يدلّ عليه لفظه.

وقد اكثر العربُ من ضرب المثل، واشتهر منهم لقمان عاد واكثم بن صيفيّ؛ ووصلت الينا طائفة من امثالهم ساعد على حفظها تواترها على ألسنة الناس، ثم انصراف جماعة من العلماء، ولاسيما في العهد العبّاسيّ، الى جمعها، كالمفضّل الضّبّي (٧٨٦م/١٧٠هـ)، وأبي هلال العسكري (١٠٠٤م/٣٩٥هـ) في كتابه «جمهرة الامثال»، والميدانيّ (١١٢٤م/٥١٨هـ) في كتابه «مجمع الامثال».

واجاد الجاهليّون في هذا النوع من الادب وخلّفوا لنا ما يدلّ على عقليّتهم واخلاقهم اكثر مما يدلنا الشعر والقصص؛ وذلك لان الامثال كلام افراد الشعب في جميع طبقاتهم، يعبّرون بها عن احوالهم المختلفة، وعقليّتهم الخاصة.

ولما كانت الامثال كلام الشعب، فقد جاءت في اكثرها غير مصقولة، كما في قولهم: «أوّل ما أطلعَ ضبٌّ ذنبَه».

٢ – **الخطابة**: كثرت الخطابة في الجاهليّة لتعدّد بواعثها. فإن القبائل العربية كانت بدوية لا تضبطها قوانين مدوّنة ولا نُظُم حكومية، فكانت الخطابة فيها فطرية، يلجأ اليها المرء للدفاع عن نفسه وقومه، في مواقف المفاخرة والمنافرة، والذّود عن الشرف والذّمار، واصلاح ذات البين بين حيّ وحيّ أو بين قبيلة وقبيلة، والدعوة الى التفاهم والصلح، والحضّ على القتال والانتقام، والسفارة بين رؤوس القبائل واقيالهم او بين الملوك وعمّالهم. وكان البدوي يلجأ اليها بنوع خاص في المواسم والمحافل العظام وفي الاسواق المتعدّدة.

لاجل ذلك كله كثر الخطباء، وكان لهم شأن كبير. إلا أنه لم يبلغنا من خطبهم الا الشيء القليل منشوراً في الكتب التاريخية. واكثر ما يُروى من

Scanned by CamScanner

الخطب الجاهلية لا يصحّ الاطمئنان له من الوجهة التاريخية لطول المسافة بين روايته وكتابته .

ومن اشهر خطباء الجاهليّة قُس بن ساعدة الايادي، وعمرو بن معدي كرب الزَبيدي، وعمرو بن كلثوم التغلبي؛ ولم تشتهر قبيلة بالخطابة اشتهار تميم، ومن خطبائها المفوّهين أكثم بن صيفي، وعمرو بن الاهتم المِنْقري .

وكان لعرب الجاهلية سُنَن خاصة في خطابتهم، منها انهم كانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع الكبار . وكان من عاداتهم ان يقفوا على نشز من الارض وأن يشيروا اثناء خطبهم بالقنا والعصيّ والقضبان والقسيّ . وكانوا يمدحون في الخطيب جهارة الصوت وفخامته، وشدّة العارضة، وظهور الحجّة، وثبات الجنان . ويذمّون البُهْر[1]، والارتعاش والرّعدة، والحصَر[2] .

وقد امتازت الخطابة الجاهلية بقصر العبارة وكثرة الحِكَم والامثال، واللجوء الى السجع القصير الفواصل . وكان الجاهليون يدمجون كثيراً من الصوَر في ذلك السّجع، ويحوّطونه بكثير من التجويد والتحبير مما يجعل له أثراً فعّالاً في الأسماع .

ويلحق بالخطبة الوصية، وهي نصيحة يلقيها صاحب الشأن في وقت معين، ويقصد بها الترغيب في ما ينفع وعمّا يضرّ، كالتي يعطيها الاب لاولاده في ساعة احتضاره، ورأس القبيلة لافراد قبيلته في الامور الهامة .

ويلحق ايضاً بالخطابة سجع المتكهنين الذين كانوا يدّعون الاطلاع على الغيب، وأنّ لكل منهم رئياً[3] من الجن يسترق له السمع فيعرف عن طريقه ما سيكون وما سيحدث للناس في المستقبل . وقد اشتهر من المتكهّنين سَطيح الذئبي، وشق بن مُصعب الانماري؛ ومن أشهر المتكهنين عُزّى سَلِمة . أما أقوالهم في

---

(١) البُهْر : تتابع النفَس وانقطاعه من الاعياء (٢). الحصَر : العيّ في المنطق .
(٣) الرِئيّ : الجنيّ يرى فيحبّ .

التكهن فهي اسجاع يعتمدون فيها على الاغراب والابهام واللغز ، وعلى القسَم بالارض والسماء ، وما الى ذلك .

٣ – **القصص** : وكان للقصص باب واسع في أدب العرب الاقدمين ، **وكانت قصصهم اسماراً تدور حول ايام العرب** ، اي الوقائع التي وقعت في الجاهلية بين القبائل ، كيوم داحِس والغبراء ، او بين العرب وأمم أخرى ، كيوم ذي قار الذي كان بين شيبان والفرس وكان النصر فيه للعرب .

وكان للعرب قصص اخرى **تتضمن احاديث الهوى** ، كما كان لهم قصص كثيرة منقولة عن الامم المجاورة كالفرس وغيرهم .

قسّ بن ساعدة – أكثم بن صيفي

١ – قس بن ساعدة (توفي نحو سنة ٦٠٠ م)

هو اسقف نجران ، وخطيب العرب وحكيمها وقاضيها في عصره . كثيراً ما كان يوافي سوق عكاظ ويخطب في الملا ترغيباً لهم عن الوثنية ، وتخويفاً من غضب الله ونقمته . وقد مال عن الدنيا وزُخرفها ، وعاش على الكفاف يعظ الناس ويعبد الله . توفي نحو سنة ٦٠٠ م بعد أن عُمّر طويلاً .

اسلوبه بعيد عن الصنعة ، كثير السجع القصير الفواصل . يعمد فيه قسّ الى ضرب الامثال وارسال الحكَم . ومن خطبته التي قالها في سوق عكاظ وتداولتها الرُّواة قوله :

« أيها الناسُ اسمَعوا وعُوا . وإذا وَعَيتُم فانتفِعوا . إنه مَن عاشَ ماتَ . ومَن ماتَ فاتَ . وكلّ ما هوَ آتٍ آت . مَطَرٌ ونَبات . وأرزاقٌ وأقوات . وآباءٌ وأمهات . وأحياءٌ وأموات . وجمعٌ وشَتات . وآياتٌ بعدَ آيات . ليلٌ موضوع . وسَقفٌ مرفوع . . . إنّ في السَّماء لَخبَراً . وإنّ في الارض لَعِبَراً . . . »

Scanned by CamScanner

عقل محور - بين ملوك حكم رفيعة موجزة - رصانة واتئاد - دون وحدة تأليفية

ب ــ أكثم بن صيفي (توفي سنة ٦٣٠ م / ٩ هـ)

هو اكثم بن صيفي بن رُباح بن الحارث التميمي اشهر حكماء العرب في الجاهلية، واشهر خطبائهم وحكامهم. كان رجل بِر ونزاهة فرغب العرب في التقاضي اليه، ولم يردُّوا له حكماً. وقد اشتهر بحكمته حتى ضُرب بها المثل. ومما يروى ان النعمان بن المنذر سمع من كسرى انو شروان ملك الفرس كلاماً في العرب أمضّه، فأحب ان يُريه ذكاءهم وفضلهم، فأرسل اليه رهطاً من وجوههم وحكمائهم، وفيهم أكثم بن صيفي. فألقى أكثم خطبة مشهورة كلها حكَم بارعة وامثال رائعة، منها :

« إنّ أفضلَ الأشياء أعاليها، وأعلى الرّجالِ ملوكُهُم، وأفضَل الملوكِ أعمُّها نَفعاً ... إصلاحُ فسادِ الرّعيَّةِ خيرٌ من إصلاحِ فَسادِ الرّاعي ... شرّ البلادِ بلادٌ لا أميرَ بها. شرّ الملوكِ مَن خافَه البريء ... »

ولمّا حضرت أكثم بن صيفي الوفاة جمع أبناءه وقال من وصية :

« يا بَنيّ الدّهر قد أدّبَني وقد أحببتُ أن أؤدّبَكم، وأزوّدكم أمراً يكونُ لكم بَعدي مَعقِلًا. يا بَنيّ تَبارّوا فإنّ البِرّ يُنسِيءُ[١] في الأجَلِ ويُنمي العدَدَ، وكُفّوا ألسِنَتكم فإنّ مَقتَلَ الرّجُلِ بينَ فَكَّيه ».

أما اسلوب أكثم بن صيفي فهو الاسلوب الذي يتخذ العقل وسيلةً للتأثير، فيتجنّب المغالاة، ويعمد الى الحكَم الرفيعة فيصوغها في قالب موجز، ويرسلها في اتئاد ورصانة على غير وحدة تأليفية.

الباب الثالث

شعر النضال الديني

الفصل الاول

كعب بن زهير (؟ - ٦٦٢م/٢٤هـ)

١ً مكانه من عصره : لما ظهر محمد بدعوته اشتدّت الخصومة بينه وبين قريش . فهبّ شعراؤها يهاجونه . فانتصر له فريق من الصحابة اشهرهم حسان بن ثابت ، وردّوا على شعراء قريش . والى جنب اولئك وهؤلاء ظهر شاعر هجا محمّداً ثم مدحه وهو كعب بن زهير .

٢ً حياته : وُلد كعب في غطفان ثم نشأ يُعنى والده به وبشعره ، حتى ظهر محمد بدعوته الى الاسلام ، فهجاه وهجا الاسلام . فأهدر محمد دمه . فخاف ورجع الى محمّد يعتذر اليه ويمدحه ، فعفا عنه ، وخلع عليه البردة .

٣ً آثاره : ديوان شعر لم يُطبع ، اشهر ما فيـــه قصيدة « بانت سعاد » المعروفة « بالبُردة » ، وهي قصيدة مشهورة ، طُبعت مرات كثيرة في الغرب وفي الشرق ، وتُرجمت الى لغات متعدّدة . وهي في مدح محمد والاعتذار اليه ؛ تُقسم الى ثلاثة اقسام : توطئة غزليّة ، ثم وصف الناقة ، ثم مدح واعتذار .

اما قسمها الغزلي ففيه انقباض عاطفيّ تكسوه المخيّلة بألوان بارعة تكاد تُنسي ما هنالك من معان مطروقة . — واما قسمها الوصفيّ ففيه اوصاف تقليدية لا تخلو من ابتكارات ومن حياة وقوّة . — وأما قسمها المدحي ففيه حسن توسّل وتذلّل للاعتـــذار ؛ الا ان كعباً لم يبلغ مبلغ النابغة في ذلك ؛ ثم مجاراة للاقدمين في المدح؛ والى ذلك حسن سبك، ودقة تصوير، وجزالة ألفاظ .

٤ً فنّه : يقوم فنّ كعب بن زهير على الخيال الحسّي الدقيق وتتبّع المعنى، والتنسيق، والصناعة التي يلجأ اليها الشاعر للتأثير .

١ً مكانه من عصره : ظهر محمد بدعوته فاشتدّت الخصومة بينه وبين قريش ، فقام شعراؤها يهاجونه ويهاجمون دعوته، وبدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزِّبَعْرى ، وعمرو بن العاص، وابو سفيان بن الحرث . فهبّ

Scanned by CamScanner

للقرشيين نفر من الصّحابة، واستأذنوا محمّداً بمساجلتهم فقال: «ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟» وكان من اولئك الصحابة الشعراء: **حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة**. فتهاجى الفريقان على النمط المعروف من الفخر بالانساب والسؤدد. وقد أُبيد الشعر القرشيّ بجمله، لما فيه من تعريض بمحمّد وأصحابه، ولما فيه من باعث على إثارة الحزازات بين المسلمين وقد توحّدوا، فضلاً عن أنّ قريش نفسها أسلمت.

وإن لم يكن لكعب بن زهير يدٌ في هذه المساجلات فهو ممَّن هجوا رسول الاسلام ثم مدحوه، ولذلك أدخلناه في هذا الباب.

٢ً **حياته**: كعب بن زُهير بن أبي سُلمى، وُلد في غَطَفان قبيلة أُمه كَبْشة، ونشأ في بيت توفّرت له القرائح الشعرية، تشهد بذلك آثار أحد عشر شاعراً من نسل أبي سُلمى جدّ كعب.

حاول زهير ان ينظم الشعر منذ حداثته فردعه ابوه، مخافة ان يتسفّل ويأتي بالضعيف فيشوّه مجد الاسرة. وما زال يهذّب لسانه ويجهّز شاعريته برواية الشعر حتى استقام له النظم.

وكان كعب قد بلغ من الشعر والشهرة حظّاً مرموقاً حين دعا محمد الى الاسلام. وإذ أسلم اخوه بُجير وبَّخه واستحثّه على الرجوع عن دينٍ لم يكن عليه احد من آبائه؛ وهجا محمَّداً والاسلام، فأهدر محمد دمَه؛ فراح يستجير بالقبائل وما من مُجير؛ ونصحه أخوه بالرجوع الى محمد، فرجع بعد أن استيأس من المجير والنصير، وأتى المدينة وقد أعدّ قصيدته المشهورة «بانت سعادُ». ولمّا مثل امام محمد انشده إياها، فعفا عنه وأمَّنه، وخلع عليه بُرْدته. فما زالت البُرْدة في اهله حتى اشتراها معاوية منهم، وتوارثها الخلفاء الامويون فالعبّاسيّون حتى آلت مع الخلافة الى بني عثمان.

وقد تُوفّي كعب نحو سنة ٦٦٢ م/ ٢٤ هـ.

Scanned by CamScanner

٣ آثاره : لكعب ديوان غير مطبوع، ليس فيه، اذا استثنينا قصيدة «بانت سعاد» إلا المقطوعات القصيرة التي نُظمت في الاغراض المعروفة من مديح وغزل وهجاء ورثاء وما الى ذلك. وأمّا اجود شعر له واحقّه بالالتفات فهو قصيدته «بانت سعاد» التي تُدعى ايضاً «البُردة» والتي تُعدّ من المشوبات(١)، وهي لاميّة من البحر البسيط لا تتجاوز ٥٨ بيتاً. وقد طار لتلك القصيدة شهرة واسعة، وتناولها العلماء بالشرح والتفسير، كما تناولها الشعراء فشطّروها وخمّسوها وعارضوها.

---

(١) اعتاد العرب ان يرتّبوا القصائد المشهورة سبعاً سبعاً ودعوها باسماء تدلّ على مقامها، وهي ٤٩، واليك ترتيبها :

١ – المعلّقات، وقد مرّ ذكرها.

٢ – المُجمهَرات واصحابها : النابغة الذبياني (٦٠٤)، عبيد بن الابرص (٥٥٥)، عديّ بن زيد (٦٠٤)، بشر بن ابي حازم (٥٣٠)، أميّة بن أبي الصلت (٦٢٤)، خداش بن زهير (٥٧٠)، النمر بن تولب العكلي (٦٤٥).

٣ – المنتَقيات، واصحابها : المسيّب بن علس (٥٨٠)، المرقّش الاكبر (٥٥٢)، المتلمّس (٥٨٠)، عروة بن الورد (٥٩٦)، المهلهل (٥٣١)، دريد بن الصمّة، المتنخّل (٦٠٠).

٤ – المُذهَبات، واصحابها : حسّان بن ثابت الانصاري (٦٧٥)، عبد الله بن رواحة الانصاري (٦٣٠)، مالك بن العجلان، قيس الأوسيّ (٦١٢)، أصيحة بن الجلاح (٥٦١)، ابو قيس بن الأسلت (٥٢٠)، عمرو بن امرىء القيس (٦٣٣).

٥ – المراثي، واصحابها : ابو ذؤيب الهذلي (٦٤٨)، كعب بن سعد الغنوي (٦١٧)، الاعشى الباهلي، علقمة ذو جدن الحميري، ابو زيد الطائيّ (٦٤٥)، متمّم اليربوعي (٦٤٦)، مالك التميميّ (٦٧٦).

٦ – المَشوبات – وقد سمّيت كذلك لقولهم ان قد شابها الكفر – وأصحابها : النابغة الجعديّ (٦٣٠)، كعب بن زهير (٦٦٢)، القطامي (٧١٠)، الحطيئة (٦٧٩). الشمّاخ بن ضرار (٦٤٠)، عمرو بن أحمر (٦٦٣)، تميم بن مقبل (٦٢٥).

٧ – المُلحمات، وأصحابها : الاخطل التغلبي (٧١٢)، الفرزدق التميمي (٧٢٩)، جرير الخطفي (٧٢٨)، عبيد الراعي (٧٣٨)، ذو الرمّة (٧٣٥)، الكميت بن زيد الاسدي (٧٤٣)، الطرمّاح بن حكيم (٦٧٨).

Scanned by CamScanner

١ – **شرحها وطبعها وترجمتها** : أما الذين شرحوها فكثيرون منهم ابن دُريد (٩٣٣)، والتبريزي (١١٠٩)، وابن هشام (١٣٦٠) والباجوري (١٨٦٠).

وقد طُبعت مراراً في الشرق وفي اوربّة، تارةً على حدة وتارة في مجاميع ادبية. فطُبعت في ليدن سنة ١٧٤٨ مع شرح مستفيض، ثم في هال سنة ١٨٣٣، ثم في ليبسيك سنة ١٨٧١، ثم في برلين سنة ١٨٩٠، ثم في باريس وقسطنطينة سنة ١٩٠٤؛ وطُبعت في بيروت سنة ١٩٣١.

وتُرجمت الى لغات كثيرة منها اللّاتينية، والفرنسية، والالمانية، والانكليزية، والايطالية.

٢ – **اقسامها** : تُقسم القصيدة الى ثلاثة اقسام :

١ – توطئة غزلية على عادة الشعراء الاقدمين (١ – ١٢)

٢ – وصف الناقة التي تبلغ بالشاعر الى المحبوبة (١٣ – ٣٣)

٣ – اعتذار ومدح لمحمد والمهاجرين (٣٤ – ٥٨)

٣ – **اغراضها وما لها من قيمة** :

١° القسم الغزلي : نلمس في هذا القسم **انقباضاً** في العاطفة يكاد يكون **جموداً** لولا ما تضفي عليه المخيّلة من **ألوان وتشبيهات بارعة، واستطرادات اوسيَّة**، تكاد تنسي ما هنالك من **معان مطروقة** قـلّ فيها الابتكار. فتشبيه الحليلة بالظّبْي، والاستطراد الى وصف الخمر ومنها الى وصف الماء البارد، كل ذلك وسيلة يستعين بها الشاعر للتغطية على **ضعف التحليل النفسي وعلى ضعف العاطفة** :

بانَتْ سُعادُ فقَلْبي اليومَ مَتبولُ ... مُتَيَّمٌ إثرَها لم يُفدَ مَكبولُ[1]

وما سُعادُ غداةَ البينِ إذ رحلوا ... إلّا أغنُّ غضيضُ الطَّرفِ مَكحولُ[2].

---

(١) بانت : فارقت. المتبول : الذي اسقمه الحبّ واضعفه. المتيّم : الذي استولى عليه الهوى وذلّله. المكبول : المقيّد (٢) البَين : الفراق. الأغنّ : صفة للظبي، وهو الذي يُخرج صوته من خياشيمه. غضيض الطرف : فاتر الاجفان، مسترخيها.

Scanned by CamScanner

٢ ـ القسم الوصفي : في هذا القسم تتجلّى براعة الشاعر الأوسيّ الذي نشأ على حب **الطبيعة والتأمل في جزئياتها**، ووعى كثيراً من أوصاف أبيه وأساتذته الأوسيّين، فجاء **كلامه مشبعاً بالاوصاف التقليدية**، وإن لم يخلُ من **ابتكارات موفّقة**. وقد بثّ الشاعر في هذا الوصف **قوّةً واندفاعاً** يظهران حتى في الالفاظ والموسيقى الشعرية :

غلباءُ، وَجناءُ، عُلكومٌ، مُذكَّرَةٌ، ... في دَفِّها سَعَةٌ قُدّامُها مِيلُ[١]
حَرفٌ أخوها أبوها مِن مُهَجَّنَةٍ، ... وعمُّها خالُها قَوْداءُ شِمليلُ[٢]

وهذا الوصف ينتهي بأبيات هي من أوفر الاوصاف القديمة **حياةً واقواها ايحاءً** :

كأنَّ أوبَ ذِراعَيها – إذا عَرِقَتْ ... وقد تلفَّع بالقُورِ العَساقيلُ
شدَّ النهارِ – ذِراعاً عَيطَلٍ نَصَفٍ، ... قامت فَجاوَبَها نُكْدٌ مَثاكيلُ[٤]
نوّاحةٍ، رِخوةِ الضَّبعَينِ، ليسَ لها، ... لمّا نَعى بِكرَها النّاعونَ، مَعقولُ[٥]
تَفري اللَّبانَ بكفَّيها، ومِدرَعُها ... مُشَقَّقٌ عَن تَراقيها، رَعابيلُ[٦]

(١) الغلباء : الغليظة الرقبة، كناية عن القوّة. الوَجناء : الناقة الشديدة الصلبة. العُلكوم : الضخمة، العظيمة. المذكّرة : التي لها قوّة الذكر. الدفّ : الجنب. قدّامها ميـل : أي طويلة العنق. (٢) الحرف : الناقة الضامرة السريعة. المهجّنة : البيض الكريمة من الابل. القوداء : الطويـلة العنق والظهر، والشديدة العنق. الشِّمليل : السريعة (٣) الأوب : سرعة الحركة والتقلّب : تلفّع : التحف وتغطى. القُور ج قارة وهي الجبل الصغير المنقطع عن الجبال. العساقيل ج عُسقول وهو السراب ؛ وفي الكلام قلبٌ، اي وقد تلفعت القور بالعساقيل (٤) شدّ النهار : اي وقت ارتفاع النهار. العيطل : المرأة الطويلة. النصَف : المتوسّطة في السنّ. قامت : اخذت بالبكاء والنواح. النُّكد ج نكداء وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد. المثاكيل ج مثكال وهي المرأة التي يكثر ثكلها اي فقدها لاولادها. يقول : تشبه ذراعا الناقة ـ وقد اندفعت في سيرها وعرقت، وقد تغطت الجبال بالسراب لشدّة الحر ـ ذراعي امرأة ثكلى تلطم وتسرع في لطمها، فيجيبها غيرها من النساء الثكالى ؛ وقد جعل المرأة نصَفاً لتكون اقوى على ترجيع يديها (٥) الضبعان : العضوان ؛ وهو يريد « برخوة الضبعين » انها سريعة الحركة. المعقول : العقل (٦) تفري : تقطع. اللّبان : الصدر. المدرع : القميص. التراقي ج ترقوة وهي أعـلى الصدر. الرّعابيل ج رُعبول وهو القطعة الممزّقة. يقول : إن هذه المرأة تمزق صدرها بيديها، وقميصها مشقّق في اعلاه لكثرة ما قطّعته.

Scanned by CamScanner

٣ً القسم المدحي: وهو يحتوي **الاعتذار والمدح**. أما الاعتذار فقد ذهب فيه الشاعر مذهب النابغة في **حسن التوسل والتذلل ووصف الجزع، وفي كلامه طرافة الا انه لم يبلغ مبلغ النابغة في وصف التعلق والاضطراب والرهبة المؤلمة**. واما المدح، فقد ذهب قسم منه في وصف الاسد الذي شبّه به الشاعر محمداً؛ وقد اقتصر في مدحه له على هيبته وهُداه، كما اقتصر في مدح المهاجرين على ذكر الشجاعة والاقدام. ومن ذلك يتضح لنا أنّ كعباً **جارى الاقدمين في اسلوبهم المدحيّ**؛ إلا ان في هذا الشعر من **حسن السبك، ودقة التصوير، وجزالة الالفاظ، والاندفاع** ما يضفي على شعر ابن زهير رونقاً خاصاً ويجعل له قيمة حقيقيّة.

٤ً **فنه**: من دراسة «البُردة» خصوصاً ومن دراسة سائر شعر كعب عموماً، يمكننا ان نستخلص ما يلي:

١ – كعب **شاعر اوسيّ** نشأ تحت رعاية والده، وتأثر برواية شعره، وأخذ عنه طريقته؛ وأول ما نلمسه في شعره هو سيطرة **الخيال الحسي**، فقد اعتاد كعب ألا يرى الاشياء ويحسها ويعبر عنها إلا عن طريق **المخيلة المدققة التي تحوّل العاطفة والفكرة الى صورة، وتزاحم التعبير العاطفي بصورة حسيّة**؛ فتبدو تلك الصورة **بتشبيهات واستدارات**. والشاعر يحاول أن يصطنع التأثير بالالوان والصور التي يبالغ فيها ويستعيض بذلك عن ثورة العاطفة.

٢ – وهو يُعنى، شأن الاوسيين، **بتتبع المعنى**، فاذا وصف إخلاف سعاد للوعد، تبسّط في الموضوع؛ ولكن تبسّطه ليس تحليلا وتعمّقاً انما هو **تكرارات** وصور مختلفة يقصد بها التقرير:

أَكْرِمْ بِها خُلَّةً، لو أنَّها صَدَقَتْ مَوْعُودَها، أو لَوَ انَّ النُّصحَ مَقبولُ

Scanned by CamScanner

فما تدومُ على حالٍ تكونُ بها كما تلوّنُ في أثوابِها الغولُ[1]
ولا تمسّكُ بالعهدِ الذي زعمتْ إلا كما يُمسكُ الماءَ الغرابيلُ

٣ — وهو يُعنى ايضاً **بالتنسيق** ووحدة القصيدة ، وقد فاق بذلك من سبقه حتى أباه . فهو **يُحكم الانتقال من معنى الى معنى ومن قسم الى قسم** ، فاذا اراد الانتقال مثلاً من الغزل الى وصف الناقة قال :

أمستْ سُعادُ بأرضٍ لا يُبلّغها إلّا العِتاقُ ، النجيباتُ المراسيلُ[2]

٤ — **والصناعة** ظاهرة في شعر كعب ، يلجأ اليها للتأثير ، فلا يكتفي باصطناع معاني الاقدمين ، بل يلجأ الى **الاطناب** للتقرير كما رأينا ، ثم إنه يلجأ الى **اختيار الالفاظ ذات الجرس الشديد ، والى التكرير اللفظي** ، يدعم كل ذلك **بالحِكَم** التي تزيد كلامه قوّة ، فتكون تلك العناصر قوام بلاغته :

إنّ الرّسولَ لَسيفٌ يُستضاءُ بهِ مُهنّدٌ مِن سُيوفِ اللهِ مَسلولُ[3]
في عُصبةٍ من قُريشٍ قالَ قائلُهمْ ببطنِ مكّةَ ، لمّا أسلموا: «زُولُوا!»[4]
زالوا ؛ فما زالَ أنكاسٌ ولا كُشُفٌ عندَ اللِّقاءِ ، ولا مِيلٌ مَعازيلُ[5]

* * *

هذا هو كعب بن زهير . واننا لنلمس في اسلوبه **لين الحضارة الجديدة ، واطنابها ، وميلها الى البلاغة المصنوعة** . وإنّ في شعره لطرافة وإن لم يصطبغ بصبغة العبقرية المبتكرة ، والشاعرية الفنية في الابداع وخلق الاجواء الفسيحة الرائعة .

---

(١) الغول : من خُرافات العرب يزعمون أنها تتراءى لهم في الفلوات وتتلوّن لهم وتضلّهم عن الطريق (٢) العتاق : الابل والخيل الكريمة . النجيبات : الكريمة السريعة من الابل . المراسيل ج مِرسال وهو السريع (٣) ان الرسول ... : اي انه سيف هُدى . لما سمع محمد هذا البيت خلع على الشاعر بُردته (٤) قائلهم : هو عمر بن الخطاب . زولوا : اي انتقلوا من مكة الى المدينة (٥) الانكاس ج نِكس وهو الضعيف . الكُشُف ج أكشَف وهو مَن لا تُرس له . المِيل ج أميل وهو مَن لا سيف له او من لا يُحسن الركوب . المعازيل ج معزول وهو من لا سلاح له .

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني

حسّان بن ثابت (؟ - ٦٧٤/٥٤ هـ)

١ً حياته : وُلد في المدينة وشبّ في بيت وجاهة وشرف منصرفاً الى اللهو : ثم قام في وجه الاوس ، اعداء قبيلته ، يدافع عن قومه ويفاخر بأمجادهم . ثم اتصل بالغساسنة فأكرموه واغدقوا عليه العطايا ، واتصل ببلاط الحيرة الى ان عاد اليه النابغة الذبياني .

وعندما ظهر الاسلام انحاز الى محمد يدافع عنه وعن دعوته : ثم اهتمّ ، بعد وفاة محمد ، لشؤون الانصار في نزاعهم مع المهاجرين ، وانحاز الى عثمان بن عفّان ثم الى معاوية ، وتوفي نحو سنة ٦٧٤ / ٥٤ هـ .

٢ً آثاره : لحسّان ديوان دُسّ عليه كثير من الشعر المنحول ؛ وفيه هجاء ، وفخر ، ومدح ، ووصف ، وغزل .

٣ً حسّان شاعر القبيلة : كان شعره في قبيلته شعر النضال القبَلي تغلب عليه صفة الفخر . ويقوم فخره على ذكر الشجاعة والكرم وشرف الاصل والنسب . وفيه نفحة عالية واندفاع شديد .

٤ً حسّان شاعر التكسّب : تكسّب حسان خصوصاً في بلاط الغساسنة . وكان مدحه يجري على الاسلوب القديم ويمتاز بالفخامة والجزالة .

٥ً حسّان شاعر الاسلام : نصب حسان نفسه للدّفاع عن الاسلام ، فكان شعره نضالاً دينياً سياسياً ، يحتوي هجاء الاعداء ومدح الموالين . اما المدح فدار حول محمد وخلفائه وكبار الصحابة والذين دافعوا عن الاسلام دفاعاً حسناً . وكانت معاني المدح وصف الخصال والسجايا ، كما كان يمتاز ذلك المدح بالعاطفة الصادقة الصادرة عن عقيدة حقيقية .

وأما الهجاء النضالي فكان موجّهاً الى المشركين من قريش عامةً ، والى أشدّهم على محمد خاصةً . وكان شديد الإقذاع لا ينال القبيلة القرشية في اصلها ونسبها بل ينال الافراد في ذاتهم ، وذلك بسبب انتساب محمد الى قريش .

٦ً حسان شاعر اللهو : غزله تقليدي؛ وخمرياته تقال عادةً للفخر على عادة الاقدمين.

٧ً قيمة شعر حسان :

١ ـ القيمة الفنيّة : شعر حسان يأتي عن طبع لا عن صنعة ، وهو يخلو من الترتيب والتساوُق كما يخلو من التنقيح والثقاف ؛ فنتج عن ذلك لين وضعف ولاسيما في القسم الاسلامي منه ؛ الا انه لا يخلو من العاطفة الصادقة المندفعة اندفاعاً شديداً . وفي شعره أثر الدين الجديد يظهر في الالفاظ والمعاني .

٢ ـ القيمة التاريخية : شعر حسان سجلّ لأخبار الغساسنة واخبار فجر الاسلام .

Scanned by CamScanner